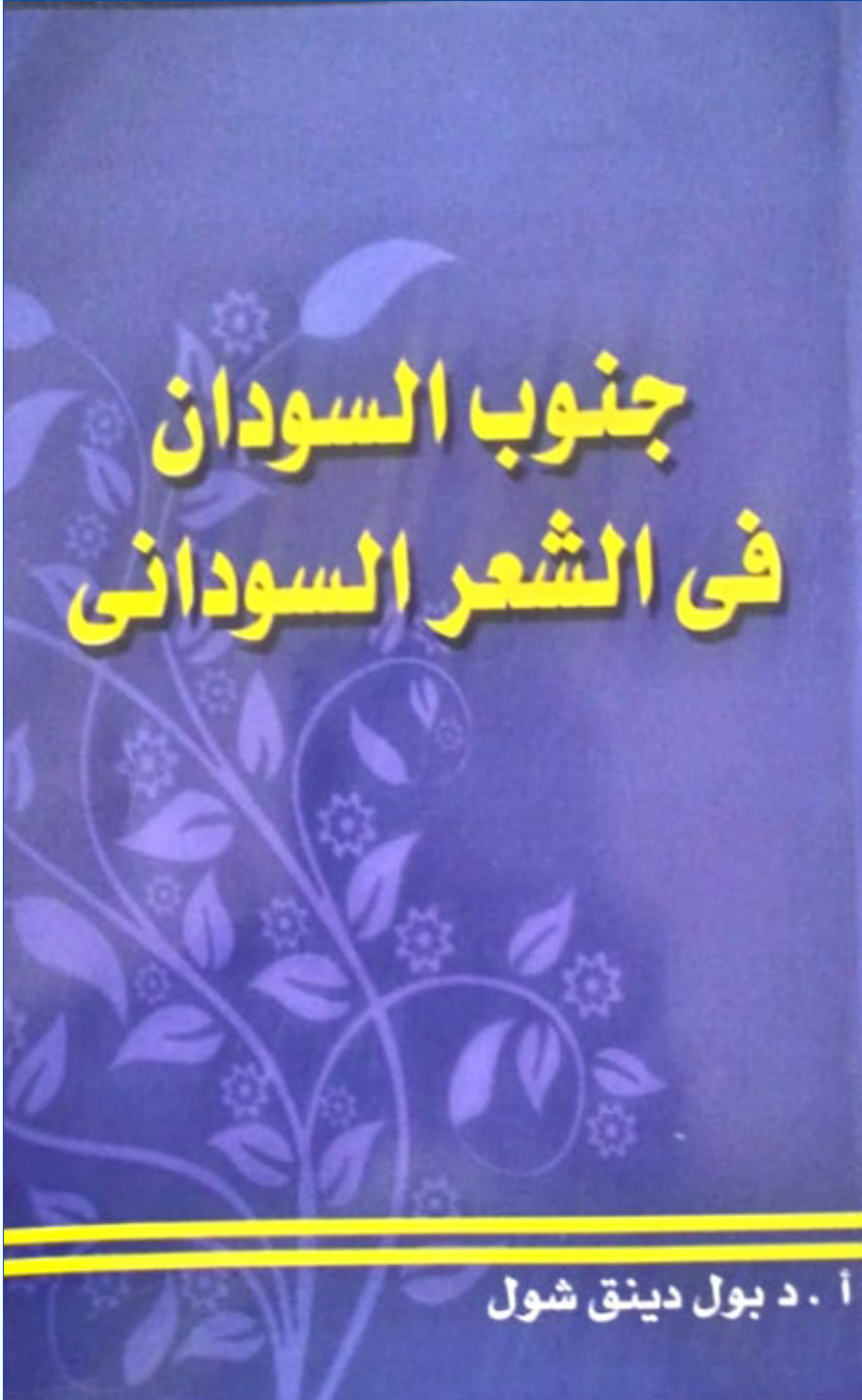


Book Review

June 2018



Publisher:,
Elzytuna Publishers,
Khartoum, Sudan

Number of pages:120

Year of publication: 2017

Reviewer:
Amb. Moses M. Akol

إستعراض كتاب
تأملات نقدية
جنوب السودان في الشعر السوداني

مؤلفه الأستاذ . د. بول دينق شول



بقلم / السفير موسى أكول
moses.akol39@yahoo.com

(1)

صدر في الشهور القليلة الماضية كتاب متفرد بعنوان ((جنوب السودان في الشعر السوداني)) للاستاذ الدكتور بول دينق شول وكيل وزارة التعليم العالي لجمهورية جنوب السودان. وبالرغم من أن الكتاب صغير في حجمه (120 صفحة) إلا أنه شامخ في مادته و أبعاده.

كل صفحة من صفحات الكتاب مترعة بالشعر و الاحداث التاريخية و الاجتماعية التي شكلت وجدان شعراء السودان على مر السنين. وطالما التنقيب عن جنوب السودان (بكلياته الجغرافية و السياسية و الثقافية) في الشعر السوداني الذي نُظِم عن جنوب السودان باللغة العربية الفصيحة هو موضوع الكتاب، لقد رصد الدكتور شول مجموعة كبيرة من الأشعار، كما حرص على تقديم شرحاً كاملاً للقائد. و لإدراكه العميق ان شعر و تاريخ السودان صنوان متماسكان كبجور القوافي وهما مرصوصان على غصن واحد كعائيد العنب، لقد وفق الكاتب في حرصه على تسليط الضوء على بعض الاحداث السياسية و الاجتماعية التي الهمت الشعراء السودانيين في الازمنة و الأمكنة الفختلفة في مسيرة الشعر السوداني. عليه، سرعان ما سيكتشف القاري أن ((جنوب السودان في الشعر السوداني)) كتاب لا يعكس فقط سحر و رونق القوافي التي نظمت عن جنوب السودان بل انه يعكس ايضاً مدى تاثر هذه القوافي بمجريات الاحداث الاجتماعية و السياسية في الحقبات المختلفة، كما يعكس الكتاب ايضاً جبروت الشعر و قدرته على تشكيل المزاج العام و تطويع مخيلة شعراء و ساسة الأمة.

(2)

أن كتاب ((جنوب السودان في الشعر السوداني)) نخر من القصائد المعبرة و التي نضمها شعراء عاش بعضهم في جنوب السودان امثال محمد المهدي المجذوب (1919 - 1982)، و مصطفى سند (1939 - 2009)، و مبارك المغربي (1928 - 1982)، و عمر أحمد قدور و غيرهم. و من الكتاب ايضاً تفوح نفحات شجن و شذى الأيام الخوالي، كما يتسلل من صفحاته لحن طروباً يشد أوتار قلب القارئ حتى يحسب انه يجوس في بوادي الجمال و الخيال في زمن بعيد حفه التاريخ. و في لغة رصينة و سلسلة (وكيف لا والكاتب استاذ اللغة العربية بإمتياز)، يسهب الدكتور شول في سبر أغوار القصائد و وضع هذه الأشعار في قوالبها التاريخية و الاجتماعية الصحيحة مما أضفى على الكتاب نكهة مميزة. و من الأشعار التي ذكرها الكاتب في صدر كتابه الشيق تلك الأنشودة الشجية ((من الإسكلا و حلا.. بى داهى العذاب حل...وبى تذكاره بتسلى...قام من البلد ولى دمعي للثياب بل.. شامبي أضحي بيك سرور...بعد المنقلا يا سرور...بعده النوم بقى لي ضرور)) التي صب فيه الشاعر محمد ود الرضي ((1885 - 1982)) حزنه و حزن زملائه لفرار ((مليم)) تلك الفتاة الجنوبية التي فتنت شعراء و فناني الحقيبة عصرئذ، و التي خطفها الباخرة ذات يوم و يمت بها صوب الرجاف في الاستوائية. و يقول بعض الرواة الثقافة ان الشاعر محمد ود الرضي ارتجل كلماتها في منتصف النهار و صدح بها الحاج محمد أحمد سرور (1901 - 1947) في مساء اليوم نفسه (محمد الحسن الجقر 2007). و يسجل مسدار ود الرضي أكثر من اثنين و عشرين محطة في مسار الباخرة المنتجة نحو الرجاف من الخرطوم. و يروى في هذا الصدد أن اهالي ((ام جر)) تسالوا عن عدم ذكر قريتهم في المسدار كما يتسأل الدكتور شول الآن عن عدم ذكر محطات فنجاك و أدوك البحر و بور في مسار ((الوابور)). وفيما وجد سكان ((ام جر)) الإجابة الشافية عندما قال لهم ود الرضي "عاد لا حوله لا قوة دى من منو...ما منكم انتو" (محمد الحسن الجقر 2007)، ربما يجد الاستاذ شول السلوى في مقولة الثقافة الأولين أن ((المعنى في قلب الشاعر). ما أروع هذه القصيدة التي ما خلا رونقها يتجلى اليوم خلال أصوات جميلة لاسيما عبر حنجرة الفنان مبارك خوجلي الباكية.

(3)

في بحثه الدائب عن جنوب السودان في الشعر السوداني الذي نظمها بعض الشعراء السودانيين منذ حقبة اربيعينات القرن المنصرم صنف الاستاذ شول هذه الأشعار الى الشعر الوصفي، و شعر المقاومة الوطني، و شعر الحرب الأهلية الأولى ((1955 - 1972)) وأخيراً اشعار الحرب الأهلية الثانية و الاخيرة ((1983 - 2005)). و لكي تكتمل الصورة، رأينا في استعراضنا لهذا الكتاب القيمالذي يحكي لنا قصة جنوب السودان في الشعر السوداني، رأينا أن نستصحب معنا غيضاً من فيض من روح و حساسية و خصوصية الشعر السوداني

(4)

جنوب السودان في الشعر الوصفي السوداني

لقد برع الشعراء السودانيون في شعر الوصف، و اجادوا تصوير ما يختلج في دواخلهم من مشاعر هوجاء و متناقضة في بعض

الاحيان. و بالرغم من ان بعضهم لم ينالوا من التعليم الا قسطاً يسيراً، إلا ان الشعراء الاولين أمثال خليل فرح (-1899 1932) و ابراهيم العبادي (1894 - 1981) و محمد علي عبدالله الأمي (1818-1988) و محمد ود الرضي (-1885 1982) و صالح عبدالسيد ((ابو صلاح)) (1890 - 1963) و عمر البنا (1848-1919) و محمد بشير عتيق (1909 -1992-) وغيرهم، اجادوا الوصف و أثروا الشعر السوداني بصور جمالية في غاية الروعة. هناك، علي سبيل المثال، لوحة شعرية أعزب من تلك التي نقشتها ريشة الشاعر التيجاني يوسف البشير (1912-1937) علي جدار الفؤاد النابض ايماناً و هيأماً!

أمنت بالحسن برداً و بالصباية ناراً
وبالكنيسة عقداً منضداً في عذارى
وبالمسيح و من طاف حوله و أستجارا
إيمان من يعبد الحسن في عيون النصرى، فتأمل

و كم تذكرنا هذه الابيات بأبيات من قصيدة ((مسيحية)) للشاعر محمد علي طه التي تقول بعض كلماتها:

يا سلوة المحزون ... يا قيثارة القلب الجريح
وبحق بطرس يا فتاتي .. من شفى الرجل الكسيع
و يمرم العذراء .. و الأحبار و الراعي الصليح
و يماري جرجس و الصليب و بالكنيسة و المسيح
أن ترحمي متعذبا يهواكي في حُب .. صحيح

و في هذا المضمار أيضاً برع الشعراء السودانيون في تصوير مشاعرهم الجياشة سوى في الاسى و الحنين لفراق الأحباب أو لضئالة فرص اللقاء مرة ثانية أو للبعد عن الأهل و الأحباب. و ها هو الشاعر عبدالمنعم عبد الحي (1922 - 1975) ، والذي عاش و توفي في شبين الكوم بمصر، يتألم شعراً و يلتوي وجداً من ((نار البعد و الغربة)) عن ادمرمان و الشوق للاهل و الصحبة:

شوقي لكل جميل في الحي
بين اليقظة و الأحلام
أريت النوم يزورني اليوم
أنوم ولو ليلة واحدة في كل عام

و في ثانياً هذا النوع من الشعر وجد الدكتور شول الشاعر مبارك المغربي متجولاً بلا هدى أو قبلة على شاطئ نهر السوبات جنوب مدينة ملكال و هو مسحوراً بسحر الجنوب المخضوض و قد إستسلم شاعرنا حينها للجمال كما يستسلم الدرويش لنشوى ايقاعات طبول الذكر، و إستنطق السحر المغربي:

كُل ما في الجنوب نبع من السحر ووقد من الهوى المشبوب
جَل مَنْ أبداع الجمال ليّفني في معاني الجمال كل مُنيب. تأمل!

ألا يذكرنا هذه الابيات بقول أحمد شوقي؟

أمنت بالله واستثيت جنته دمش روح، وجنات، وجنان
والحور في دمر، او حول هامتها حور كواشف عن ساق، وولدان
و الطير تصدح من خلف العيون بها كما للعيون للطير الحان

أما الشاعر محمد أحمد محجوب و الذي ذهب به الى الرجاف مكبلاً بالحديد فلقد وجد الحرية في جمال الغيم التي البست الجبال حلة داكنة يوم زرفت فيه السماء دمعاً حينما كان الريح ينوح فوق قمم الجبال (والغيم يمرح في السهول كأنه طفل يقبل ظلة مفتونا منتقل بين الجبال مُعربداً أنا، أنا كالجبال رزينا بكت السماء بمدمع مُتقاطر و الريح أرسلت النواح حزينا).
و في بحور الشعر الوصفي السوداني أيضاً وجد الدكتور بول دينق شول الشاعر محمد المهدي المجذوب يسبح مع العذارى في غدير البراة و العفة و التجرد الكامل في مدينة واو في بحر الغزال، و كان ينشد: تذكرت في واو عذارى و أنفسا عرايا وهل يعري السلاف المكتم يعيشون اجساداً كراما و غاية هي العدل صرفاً و البقاء المكرم.

(5)

إذاً ، ابداع الشعراء الذين نظموا شعراً وصفاً عن جمال طبيعة جنوب السودان بالقدر الذي برع فيه رصفاؤهم الذين سحرتهم

الوديان والبادي والنخيل والصحارى في مناطق السودان الاخرى (ام در ياربوع سودانا نحبيك وانت كل امالنا.. فى غربك عروس الرمال... وفى شرتك اية جمال... وجنوبك واسع مجال.. يحالاة رطبك فى الشمال.. بنعيم الجنوب جود لينا.. ومن فيض كردفان اغنيانا... فى شرتك نصيد واديننا.. شمالك فيهو بركاويننا.. تطرب بيك جميع اجيالك.. وفى كل البقع ترضاك طوالى الفرح.. فى بالك ياربوع شوقنا فى استقبالك---قصيدة الشاعر احمد عمر الرباطي). و يلحظ المرء تاثير سحر الجنوب على الشعراء الذين وفقوا مشدوهين حيال جمال جباله ومفاته حسانه، الامر الذي بدد عنهم الشعور بالغرابة عن آدمران.

لكن وبالرغم من صدق هذه القوافي نجد ان هذا الوصف الجميل بمجمله ليس مادي في مكنونه بل شكلي وظاهري، إذ صب الشعراء اهتمامهم في وصف الاشياء المرئية من جبال وأنهر ومدن و الجمال الابنوسي. إذا، بإستثناء قحوف متناثرة هنا وهناك كما في بعض ابيات قصيدة ((تحية الى جنوب السودان)) للشاعر محمد المهدي المجذوب التي تشير الى علامات الفروسية عند رجال الجنوب و الى الكرامة والعزة التي تكسو الاجساد العارية، نخلص الى ان وجود جنوب السودان في الشعر الوصفي السوداني وجود جغرافي "طبيعي ومناخي" بحت. بيد، بالرغم من سطحيته البريئة نحسب ان هذا الوصف الشعري لجنوب السودان زاد اللوحة الجمالية للشعر السوداني عموماً رونقاً وتميزاً.

(6)

جنوب السودان وشعر المقاومة الوطني و الماضي (السناري) الحاضر

تميز الشعر السوداني منذ القدم بمدح شهامة فرسان القبيلة و بطولياتهم في ساحات القتال ضد القبائل الاخرى، و عليه ظهرت كنايةات ترمز للبطولة (أسد بيثشة و أسد الخلا ، التمساح العشاري، اللدر، حجر اليويات ، و تور بقر الجواميس وغيرها من الصفات التي ترمز للثبات في المعارك و التي تعكس القيم السلوكية و الاخلاقية للمجتمعات المختلفة. و قد جسد شعر الحماسة هذه الصفات في ادبه، و مرثية بنونة بت المك لشقيقها عماره ود المك خير مثال لذلك : أب درق الموشح كلو بالسوميت..أب رسوة البكر حجر شراب سينيت...ماهو الفافنوس ماهو الغليد القوص..ود المك عريس خيلا بيجن عركوس...ما دايرالك الميتة ام رمادا شح.. دايرك يوم لقي بدميك تتوشح... أسد بيثشة المكربت قمزاتو مطبقات..كوفيتك الخودة ام عصا بولاد...درعك في ام لهيب زي الشمس وقاد.. يا بقت عقود السم يا جرعة عقود السم.. الخيل عركسن ماقال عدادن كم.. فرتاك حافلن ملاي سروجن دم.. احي على سيفوا البحد الروس. و قال آخر في شجاعة ممدوحه الذي قال عنه أنه منذ طفولته لا يهاب الوعيد و الرئير الأجوف: من قومة الجهل ما بخوفوك بي وُخ.. تور بقر الجواميس الرقادن لُح..قربنك بياخذ الهامة يمرق المخ. كما لم يسلم العهد السناري (1504 - 1821) من سطوة القبيلة و أعلآ شأنها حتى على حساب الدين في بعض الاحيان و كذلك التحريض على الحرب القبلي. و ها هي الشاعرة أمنة (شغبَة)، و التي يحكى انها كانت تشارك ابناء قبيلتها في المعارك في عهد السلطنة الزرقاء، ها هي تحرض ابنها حسين على حوض المعارك التي تنشب بين القبيلة و أعدائها بدلا من إنشغاله بدراسة القرآن الكريم وجمع المال: (متين يا حسين اشوف سيفك معلق، لا حسين كتل لا حسين معلق، لا حسين ركب الفى شايئو علق، قاعد للزكاة ولقيط المحلق؟؟).

(7)

وطالما لم يكن لجنوب السودان وجود يذكر في الكيان السناري أو في الرواق السنارية، لا غرو انه ليس لجنوب السودان نصيب من هذا اللون من الشعر السوداني (القبلي)، وذلك لأنه لم تكن له أصلاً ناقة او جمالا في هذه الحروب القبيلة. و لكن في المقابل كتب الشعراء قصائد مناهضة للاستعمار في صدر الثورة المهديّة، و في ذلك يقول الشاعر محمد عمر البنا (1848 - 1919): الجبن عار والشجاعة هيبه للمرء ما اقتترنت به العزمت، والصبر عند البأس مكرمة ومقدام الرجال نهاية الوقفات، فعلام خوف المرء إن خشى الوغى، والفخر كل الفخر بيع النفس الله العلي وأجرها الجنات. و إستحوذت الحقبة بعد معركة كرري (1899) لاسيما الفترة بعد قيام مؤتمر الخريجين (1938) ومشاركة الجنود السودانيين في الحرب العالمية الثانية (1939 - 1945)، إستحوذت على نصيب الاسد من اشعار المقاومة الوطنية و الحض على الإبتسبال في مقاومة المستعمر، إذ جادت قرائح شعراء كثر باسمى معانى حب الأوطان و الذود عنها، وها هي كلمات الشاعران خليل (افندي) فرح (1894 - 1932) و يوسف مصطفى التني (1907 - 1969) (مأنفكت تلهم المشاعر الوطنية عبر الأجيال، و تقول بلا كلل : عزه في هواك نحن الجبال، للبخوض صفاك عزة نحن النبال، و في الفؤاد ترعاه العناية بين ضلوعي الوطن العزيز غير سلامتك ما عندي غاية إن شاء الله تسلم وطني العزيز، وطني بقضيلي حاجة كيف، اسيبه واروح لي خواجه، نحن للقومية النبيلة ما بندور عصبية القبيلة تربي فينا ضغائن وبيبة تزيد مصائب الوطن العزيز)). و لم يبرز جنوب السودان بوضوح في شعر المقاومة الوطنية إلا في بداية العقد الاخير من عمر المقاومة الوطنية ضد الاستعمار.

و في هذا المحور يورد الدكتور بول دينق شول في كتابه الشيق أمثلة كثيرة لوجود جنوب السودان في القصائد الوطنية التي نظمت في مناهضة الاستعمار البريطاني وسياسته الرامية لفصل المنطقة من السودان. و خص الكاتب بالذكر الشعراء مبارك المغربي و الناصر قريب الله (1918 - 1953) و خضر حمد و إدريس جماع (1922 - 1980) و النور ابراهيم وعبد اللطيف عبدالرحمن صاحب قصيدتي " يوم حاربناك يا جهل بعزم من حديد..طال مسواك على هذا البلاد، و "منقو زمبيري"، و التي نحسب انها من الاشعار السودانية النادرة التي تخاطب انسان جنوب السودان بود و عاطفة و هذا مع الأخذ في الاعتبار ان المستعمر مازال يلقي بظلاله على قصيدة مربى الاجيال هذه. لكن و بالرغم الحصيلة الشعرية الضخمة التي أفرزتها المقاومة الوطنية، و بالرغم من تخليد ذكري بعض

الشخصيات من جنوب السودان التي سجلت اروع البطولات ضد الاستعمار عبر حركة جمعية اللواء الأبيض، نجد أن جنوب السودان في شعر المقاومة الوطني لا يعدو ان يكون أكثر من علامة (تجارية) سياسية غامضة (ضموا الجنوب الى الشمال) لا يشار إليها إلا في صياغ كيد المستعمر و سعيه لفصل المنطقة من السودان.

(8)

شعر الحرب الأهلية الأولى ((1955 - 1972) و العودة لسنار

لك الخيرات أن وافيت سنار قف بها
وقوف محب وانتَهز فرصة العمر
والق عصا التسيار في صرح أنسها
نجد كل ما تهوى النفوس من الأمر

هكذا إمتدح الشيخ عمر المغربي سنار السلطان بادي الرابع (1643 - 1678)م، و نعاها شاعر آخر بعد سقوطها عام 1821 في ابیات قال في بعضها:

أرى لدهري إقبالاً وإدباراً فكل حين يري للمرء أخباراً
يوماً يريه من الأفراح أكملها ويوماً يريه من الأحران أكاراً
وكل شيء إذا ما تمّ غايته أبصرت نقصاً به في الحال إجهاراً

بالرغم من الإكدار و الأقدار أتى الشاعر السوداني محمد عبدالحى (1944 - 1989) يدعو في عام 1963 الى العودة الى الجمع بين الثقافتين العربية و الإفريقية كما كان الحال في العهد السناري. و تقول بعض ابیات قصيدته (العودة لسنار):

سأعودُ اليوم ، ياسنارُ ، حيث الرمزُ خيطُ ،
من بريق أسود ، بين الذرى والسفح ،
والغابة والصحراء ، والثمر الناضج والجزر القديم .
لغتي أنت . وينبوعى الذى يأوى نجومى ،
وعرق الذهب المبرق فى صخرتى الزرقاء ،
والنار التى فيها تجاسرت على الحب العظيم
أنا منكم . تائه " عاد يغنى بلسان
ويصلى بلسان
من بحار نائبات
لم تنز فى صمتها الأخضر أحلام الموانى .
كافراً تهت سنيناً وسنيناً
مستعيراً لى لسانا و عيوننا
باحثاً بين قصور الماء عن ساحرة الماء الغريبه

قد يختلف المؤرخون في تقييمهم للسلطنة الزرقاء كمرکز قوى للاشعاع الدينى بعد سقوط الأندلس (1492)، لكن مما لا شك فيه هو ان العهد السناري الذي قال بعض ملوكه بنسبهم الأموي و قال البعض الآخر بأصلهم العباسي شهد تحول السودان من عهد نوبي/مسيحي/زراعي إلى عهد فونجي/عربي/إسلامي، الأمر الذي كان له الأثر الأهم في تشكل التركيبة السايكلوجية والثقافية لدى أهل وسط وشمال السودان. وكما كانت لسنار نصيبها من تناقضات كثيرة و اضطرابات باينة في الهوية الزنجية/العربية، لقد ورث السودان من العهد السناري عقدة الهوية الجامعة و معضلة الشخصية المزدوجة وعقيدة الإقصاء العرقي و الثقافي و الدينى والإنشغال في الدرجة الأولى بالاستحواذ على كرسي الحكم (الكر) والاحتفاظ به. عليه طالما كانت الساحتان السياسية والأدبية مشغولتان غداة إستقلال السودان بشعارات (ضموا الجنوب الى الشمال)، لا عجب، إذاً، أن يفشل الوطنيون حينها في إلتقاط اصوات نواقيس الخطر التي بدأت تنذر بكارثة كبيرة جراء تملل و تدمير السياسيين والعمال و الجنود الجنوبيين في شهر اغسطس 1955.

(9)

الشريعم

فتح تمرد الفرقة العسكرية في ((توريت)) حمم بركانية من الشعر الذي صب بعض الشعراء جام غضبهم على الجنوب و أهله وكان أهل الجنوب راضون عن المجازر التي طالت الأبرياء من شمال السودان حينئذ. و لأن الوطنيين السودانيين مازالوا حتى تلك اللحظة و بعدها ينظرون لجنوب السودان من منظور سياسي ضحل، تم تفرغ واقعة تمرد فرقة عسكرية و تدمر عمالي من اجل اجور في مشرووع ((انزارا)) الزراعي من صياغهما الاجتماعي والامني، وجعلوا ((توريت)) يرمز بين ليلة وضحاها في الشعر السوداني الى "خيانة" و "عذر" و "خذلان" انسان جنوب السودان، و فجأة تبذرت إدعات الاخوة كما السراب، وبدأ البعض يطوف "بقميص عثمان" لعل فارس مغوار يثار للموتى و يذل "الزنج". و تفاقمت حدة العداء العرقي و الثقافي بين شطري البلاد مما جعلت إمكانية الجمع بين الثقافتين العربية و الإفريقية و العودة لسنار التي نادى بها محمد عبدالحى أشبه بأساطير الأولين

و لكن طالما لم تتصلب الشمس في كبد الليل و لم تحتجب عن الشروق منذما انهارت مملكة الفونج، كان لابد لفجر استقلال السودان أن يبذخ في يناير 1956 و أنشد الشعب مع الشاعر عبدالواحد عبدالله "اليوم نرفع راية إستقلالنا .. و يسيطر التاريخ مولد شعبنا"، و انفجرت ثورة الشعب ((1964)) و أنشد الشعب مع محمد المكي ابراهيم " كان أكتوبر غضبتنا الأولى مع الملك النمر.. كان أسياف العُشر ومع الماظ البطل"، و جاء عام 1969 "بابي عاج أخوي و برايات النميري"، ثم أخيراً وضعت الحرب الأهلية الأولى أوزارها. و لكن بالرغم من ذلك ظل شبه ((توريت)) يرقص رقصة الموت بين الفينة و اخرى في مخيلة العديد من الشعراء السودانيين، مما أدى لفقدان التوازن و الموضوعية في تناول الشعراء لجنوب السودان. عليه، ظل الإشارة الى جنوب السودان في الشعر السوداني في هذه الفترة سياسية/عدائية.

(10)

شعر الحرب الأهلية الثانية ((١٩٨٣ - ٢٠٠٥)): بداية النهاية أو نهاية البداية

كما يقول الدكتور بول دينق شول في هذه الجزئية في الكتاب (ص 16) بأن شعر الحرب الأهلية الثانية اصبح بالصبغة العقيدية الإسلامية دفاعاً عن العقيدة الإسلامية و الارض و العرض و المال. عليه تعاضمت عقدة الهوية و اشتدت عقيدة الإقصاء العرقي و الثقافي و الديني ضراوة. برع شعراء الحماس في إنتحال شخصية الانسان المتدين و الزاهد عن خيرات الدنيا، و خاطبوا بشعرهم الوجدان السوداني خاصة في وسط و شمال البلاد خلال ألحان المديح النبوي الشريف و نسخوا إنشاد الشيخ عبدالرحيم البرعي الذي كان يدعو للإصلاح الاجتماعي، و سخرروا المديح لتجبيش و تحريض الشباب على الحرب.

لكي لا نظلم أحد، و بإستثناء الجلالات الركيكة (انا ماشي نيالا يا هوي هوي ،عاجبني جمالا سمبلا، يومنا ما جا يومنا ما جا، السونكي ركب هي ها)، لابد من الاقرار بأن شعراء هذه الفترة (وأكثرهم من الشباب) ظلوا ملتزمون فنياً و منظمون منهجياً في سعيهم لتحويل جنوب السودان الى "ساحات الفداء" عليه، تلاشت من شعرهم الحديث عن ربوع السودان (بنعيم الجنوب جود لنا)، و"السلام" و "التعايش السلمي"، " و الخلاف لا يفسد للود قضية".

بالرغم من سيطرة شعراء الحماس العقائدي على الساحة فيما يلي الشعر الوطني إبان الحرب الأهلية الثانية، لم يقف (شعراء الضفة الاخرى) بقيادة محبوب شريف مكتوفي الايدي أو معقودي اللسان بل قدم الشعراء هاشم صديق، محمد المكي ابراهيم و محمد طه القدال وغيرهم الكثير من الأشعار التي تعكس هموم الناس في البلاد بصورة عامة، إذ وجدوا ضالتهم في حنجرة الفنان الراحل مصطفى سيد أحمد (1953 - 1996). لكن انفصال جنوب السودان عام 2011 و الذي وصفه د. منصور خالد ب((زلزال الشرق الأوسط و شمال إفريقيا)) في كتابه بالاسم نفسه لقد وضع الجميع بغنة أمام مرآة كبيرة ليشاهدوا خلالها بأعينهم ما حل بالبلاد جراء سياسات خرقاء. و عندها أخذ الجميع يتأسل في حيرة كما تسأل الشاعر محمد عبد الحى قبل ما يقارب نصف قرن من الزمان:

صاحبى قل ! ما ترى بين شعاب الأرخبيل؟
أرض "ديك الجن" أم "قبس" القتل؟
أرض "سنغور" عليها من نحاس البحر صهد لا يسيل؟
سألت ما سألت؟
هل ترى أرجع يوماً
لا بساً صحوى حلما
حاملاً حلمى همًا
فى دجى الذاكرة الأولى وأحلام القبيلة

وثنى مجّد الأرض وصوفى ضريّر
مجّد الرؤيا ونيران الإله.

(11)

تأملات

و الآن و بصدور كتاب (جنوب السودان في الشعر السوداني) لدكتور بول دينق شول لايد من أن يتسأل المرء عن كيف ياترى كان يكون حال السودان و جنوب السودان في الشعر السوداني لو جادت القرائح الشعرية لكبار شعراء السودان بقصائد تحمل في مكانها كلم يضمم جراح و آلام أهل جنوب السودان جراء المجازر الكثيرة التي تعرضوا لها قبل و بعد استقلال السودان. عليه، كيف كان يكون الحال لو سطر الشاعر مبارك المغربي الذي عرف عنه شكواه الراتب عن الأوضاع المعيشية الصعبة التي كان يعيشها الموظفون من شمال السودان إبان عملهم في جنوب السودان في خمسينيات و ستينيات القرن الماضي، ماذا لو سطر قصيدة يتضامن فيها مع عمال مشروع الزاندي في مطالبتهم لتحسين أوضاعهم المعيشية المأساوية، مع العلم ان شرارة اضراب عمال مشروع الزاندي هي التي ساعدت في تذكية نيران (توريت) في شهر اغسطس عام 1955 (رفائيل بدال 2000)! ماذا لو جادت قريحة محمد مفتاح الفيتوري بقصيدة يرثي فيها ضحايا مذبحه قرية (وارجوك) عام 1964 لتأتي القصيدة مجارة لقصيدة صلاح أحمد ابراهيم الغاضبة على أحداث (عنبر جودة) في يناير 1956. ماذا لو أعترت عبقرية الحضرة الشعرية العلامة البروفيسر عبدالله الطيب و فجر (ثورة حزين) اخرى يرثي فيها ضحايا مذابح المدرسين الجنوبيين في (كدوك) و المواطنين العزل في (جوبا) وكبار الموظفين الجنوبيين في حفل زفاف في مدينة (واو) عام 1965، و ليت البروفيسر في غضبته تلك يسأل قبر ظابط القوات المسلحة السودانية في (بور) إذا كان القبر يعلم ان كبار مشايخ دينكا بور يقتلون بدم بارد من قبل "العرب" بعد أن بكى رئيس وزراء السودان فوق القبر! كيف ياترى كان يكون حال السودان و جنوب السودان في الشعر السوداني لو جادت قريحة الشاعر الهادي أم بمرقية في حق المئات الآلاف من المواطنين الذين قضى نحبتهم جراء القصف العشوائي الذي مارسه سلاح الطيران السوداني إبان الحربين الاهلئتين.

ماذا لو سلك الشاعر الفذ سيد أحمد الحارذلو درب نقد الذات كما فعل د. سليمان بلدو و د. عشاري محمد خليل بعد (مذبحة الضعين)، ماذا لو جادت قريحته الشعرية بمسدار من أرض البطانة يرثي فيه ضحايا مذبحه (الجبليين) التي قتل فيها أكثر من 700 من اطفال و نساء و رجال اثنية الشلك خلال أعياد كريسماس عام 1989! و كيف ياترى كان يكون حال السودان إجتماعياً وسياسياً و حظ جنوب السودان في الشعر السوداني لو جادت قريحة شعراء (الضفة الاخرى و الغابة و الصحراء) بنصوص واضحة تستنكر جهاراً وضعية مئات الآلاف من المواطنين الذين نزحوا من ديارهم في جنوب السودان الى معسكرات النزوح و اللجو حيث يعيشون "كالموتى" بجوار القبور المتناثرة على تخوم مدن بعيدة!

مهما يكن الأمر، فإن شعر السودان ظل منذ بداية المقاومة الوطنية حتى نهاية الحرب الأهلية الأخيرة حبيس ما يسمى الموروث الثقافي المتوغل في الواقع السياسي و الاجتماعي السوداني المشوب بفيض من "الثنائيات" العرقية و الثقافية و الدينية المتناقضة. و إذا كان "الشعر الحقيقي هو صورة طبق الأصل من نفس صاحبه و عليه تشكل مجموعة صور نفوس ادباء الأمة صورة حقيقية لنفس الأمة"، كما يقول الشاعر و الناقد السوداني حمزة الملك طمبل (عبد الهادي الصديق 2006)، و بما أن جنوب السودان ظل خارج السفسطائية السودانية بالمفهوم السوسولوجي، كان لايد، إذاً، لجنوب السودان أن يظهر في الشعر السوداني باهتاً و بعيداً في المخيلة السودانية تارة، ثم يبدو في لحظات الصفاء كلوحة مزخرفة بأجمل ألوان الطبيعة، ثم يغدو ارض الجنوب غربياً و مرعباً كجزيرة (سرنديب) تارة أخرى، و لكن لا يلبث أن تشد حدة "الشزوفرينيا" الجماعية حتى يظهر جنوب السودان في الشعر السوداني كمصدر للخير و الشر في آن واحد. إذاً، أن ظهور جنوب السودان في الشعر السوداني على هذا النحو منذ بداية الدولة السودانية يعكس بقدر كبير عقدة الشعر و الشاعر السوداني اللذان ظلا أسير الراهن الاجتماعي و السياسي الكامن في المسمى "الأصالة" الاجتماعية الموروثة في وسط و شمال البلاد، هذا بالرغم من الحداثة التي طرأت على الشعر و الشاعر السوداني منذ أربعينيات القرن الماضي. حتى الشعارين عبدالمنعم عبدالحى (1922 - 1975) و عبدالعظيم أكل (1960 -) اللذان ينحدران من جنوب السودان لم يتمكنوا من الفكك من الوثاق الحريري الذي كبل "الموروث" الثقافي به حركتهما الشعرية، و لذلك لم يظهر جنوب السودان في أشعارهما إلا عبر إباحات عابرة و باهتة كغيوم صيفية. عليه فإن الشعراء الذين حاولوا السباحة عكس تيار الموروث الاجتماعي و الديني قد اصطدموا بسد منيع يمنعهم من العبور الى برزخ شاعري أبهى لوناً و أوسع عرضاً، و لذلك "لاذ بعضهم بالجنون و الموات أو بضروب من الفن يفرخون تحت إبطه" (عبد الهادي الصديق 2006). أما الذين حاولوا الهرب من الضغوط الاجتماعية في شمال السودان الى حضن جنوب البلاد فكان مصير شعرهم مظلم، إذ جاءت بعض أشعارهم متوغلة في عمق السطحية الشكلية الكامنة في الظواهر الخارجية المرئية و التي ربما تعكس فيما تعكس الحالة النفسية للشاعر ثم ضحالة فهم الشاعر لقيم مجتمعات جنوب السودان المتنوعة.

ها هو، على سبيل المثال، الشاعر الضليع محمد المهدي المجذوب الذي عاش و عمل في جنوب السودان و الذي يتهمه بعض النقاد ظلماً و إجحافاً انه منحاز "لتقافة جنوب السودان"، ها هو في قصيدته (انطلاقة) التي كتبها في مدينة واو عام 1954 يحاول الهرب من "نار المجاذيب" و من "المولد" بقصيدة تسمى في المقام الأول للعديد من ثقافات أهل جنوب السودان قبل أن تقدح في مصداقيه الرجل بصفته شاعر كبير. ليت شعري كيف ياترى تفيد الابيات التالية في تغيير المفاهيم المجتمعية الخاطئة عن جنوب السودان و ضباب السكر يعمي بصر شاعرنا الذي يتمنى في قصيدته لو أنه خلق ونشأ زنجياً في الجنوب وكان الترنج سكرًا في الطرقات و اللامسؤولية من طبع الزنوج ؟

فليتِي في الزنوج ولي ربابُ تميلُ به خطاي وتستقيمُ
أجشمه فيجفلُ وهو يشكو كما يشكو من الحمة السليم
وفي حَقْوَيَّ من خرزٍ حزامُ وفي صدغيَّ من ودعٍ نظيم
وأجترع المريسةَ في الحواني وأهزِرُ لا ألام ولا ألوم
طليقُ لا تقيدني قريشُ بأحساب الكرام ولا تميم
وأصرعُ في الطريق وفي عيوني ضبابُ السُّكرِ والطربِ العُشوم

إذاً، لا يحتاج المرء أن يقدم مسوقات للتأكيد على أن كتاب (جنوب السودان في الشعر السوداني) لا يمثل بأي حال من الأحوال استدعاءً للماضي أو بكاء على الأطلال، وذلك لأنه لم تكن هناك أصلاً صروح شامخة و أمجاد تليدة شيدت لجنوب السودان في الشعر السوداني حتى يبكي المرء على أطلالها. بل نحسب أنه بصدور كتاب (جنوب السودان في الشعر السوداني) قد استطاع الدكتور بول دينق شول أن يرمى بشبাকে في عمق النيل ببراءة (وكيف لا وهو المنحدر بجدارة من سلالة أمهر صيادي ما يحوم في جوف الأنهار) ليجلب الى شاطئ النهر العجوز أصدافا كثيرة تحوي في جوفها لآلى و دُرر تخبيئ اسراراً عن ماهية الشعر ووظيفته، وعلاقة الشعر بالطبيعة و بالموروث الثقافي والسياسي، وتأثير الشعر على المزاج القومي و تأثره به، و الدروس التي يمكن أن يستقيها شعراء جنوب السودان من معضلة الاقليات في الشعر القومي. بطبيعة الحال، ستظل الاشعار التي نظمت عن جنوب السودان في الشعر السوداني محفوظة في الذاكرة كما ستبقي العودة لها بين اللفيئة و الأخرى كالعودة لسنار و الى الأندلس والى كوش قبلهما و ذلك لأنها، كما يقول الأديب السوداني عبدالهادي الصديق، "عودة الى زمن لا علاقة له بالماضي لأنها عودة الى ما تبقى من الماضي في الحاضر."



The South Sudan Center for Strategic and Policy Studies (CSPS) was established to build a democratic state and well informed nation. Working towards a stable, prosperous and peaceful South Sudan and the region; characterized by respect for the rule of law, sustainable and equitable development, socio-economic justice, political empowerment, accountability and governmental transparency, collaborative security, and participatory citizenry.

© 2018 CSPS. All rights reserved. No part of this publication may be reproduced or transmitted in any form or by any means without permission in writing from CSPS, except in the case of brief quotations in news articles, critical articles, or reviews. Please direct inquiries to: CSPS

P.O.BOX 619, Hai Jeberona next to Sunshine Hospital
Juba, South Sudan
Tel: +211 (0) 920 310 415 | +211 (0) 915 652 847
www.ss-csps.org